16 ème Année No. 772

Lundi — 19 — 4 — 1948

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٧٧٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧ — ١٩ أبريل سنة ١٩٤٨ » السنة السادسة عشرة

من أقاصيص الجوارى فى عهد الرشيد :

بهـــيرة

[مهداة إلى صاحب المالى إبراهيم دسوق أباظة باشا]

— ١ —

— ما أجمل هذا الصوت ! من أين مصدره ؟

— من صوب النهر يا مولاى

— إن حلاوته وإيقاعه ليلبثان عن ظرف بارع وصبى نضر

— لعلها قينةٌ فى زورق من زوارق المخنثين(١) تعرفُ على لهوهم الماجن بالغناء والحسن كالعادة

— مل بنا إلى الشاطئ عسى أن نرى مصداق ما نسمع

وكان الرجل الذى سأل وأمر طويلاً بدين الجسم أشقر اللحية على وجهه جلالة السلطان ومهابة الملك ؛ أما رفيقه الذى أجاب وأطاع فكان مساوياً له فى العمر ، ولكنه كان ربعة القوام ، رقيق البدن ، أزهر اللون ، تتوسم الظرف من ملامحه ، وتتبين الذكاء من ألفاظه . وكانا يلبسان ملابس التجار وعيشان مشية المستطلع بين القصور الناعمة القائمة على دجلة من كرخ بغداد فى أصيل يوم من أيام أبريل . وعلى ثلاث خطوات منهما كان يسير رجل وثيق التركيب عظيم البسطة يلحظ لحظات الصقر ويراعاها بعين النمر . وكانت دار السلام يومئذ فى أيام العروس (١) من عهد الرشيد ، قد تجمعت فيها الدنيا ببهجتها وزينتها ، وفتنتها وثروتها ، فهى أشعة من الجمال والسحر ، وظلال من الرخاء والبشر ، ونسمات من الروح والعطر ، وأخيلة من الحب والشعر ، ومتاع من نعيم التمدن الإسلامى القائم على لذة الروح والجسم ، وسعادة الدين والدنيا ، وراحة النفس والناس

***

اتجه الرجلان وتابعهما الصامت نحو الصوت فجرهما إلى بستان مشرف على النهر قد جلست على عريش من عرائشه الكاسية بأشتات الرياحين والزهر جارية فى وفرة الجمال وزهرة العمر ترسل هذا اللحن الغزلى الشجى الضارع كأنها تهدهد به حباً لا يهجع ، وتناجى به حبيباً لا يسمع !

فدار بين أعظم الرجلين وبينها هذا الحوار الرقيق :

— لعلك تودين أن يكون لهذا الغناء الساحر سامع !

— لو كنت أوده لما عز علىّ أن أجده

— وهل خلق الله مثل هذا الصوت ليتبدد فى الهواء ويضيع فى هذه الخلوة ؟

— سل البلبل حين يبعث الشدو : هل يريد أن يبعثه إلى أذنك ؟ وسل الشمس حين ترسل الضوء : هل تريد أن ترسله إلى عينك ؟ وسل الزهرة حين تبث العطر : هل تريد أن تبثه لأنفك ؟

— تبارك الله ! براعة فى الغناء وبراعة فى الذكاء وبراعة فى الحسن ! ماذا تسمين ؟

(١) كان يطلق هذا الاسم فى بغداد على أهل الظرف واللهو والفتوة ممن يشبهون (أولاد الذوات) اليوم

(١) كان الناس يسمون عهد الرشيد لرخائه وجماله أيام العروس

— بهيرة

— ولمن تكونين ؟

— لسيدى على بن وهب

قالت ذلك بهيرة ثم حيت الرجل وصاحبيه وانطلقت بين أشجار البستان كأنها عروس من عرائس المروج ازدهاها الربيع فطفرت من المرح راكضة راقصة

— لقد وقعت بقلبي هذه الجارية يا جعفر !

— إذا شاء أمير المؤمنين كانت فى ملكه من الغد

— ٢ —

وفى غد ذلك اليوم انتقلت بهيرة بالشراء إلى قصر الرشيد بالرصافة ، وكان يموج بالحور والولدان موجَ الفردوس ، حتى بلغ ما فيه من السراري والقيان زهاء ألفى جارية من الروميات والكرجيات والجركسيات والعربيات والحبشيات ، يرفلن فى الأقواف الموشاة بالذهب ، والمصائب المرصعة بالدر ، والمناطق المنسوجة من المسجد ؛ ويخطرن بين دوائر الحرم مَوائس من الدلال ، نشاوى من الحسن ، ينفحن بالفتون والحب كما تنفح الزهور العاشقة بالعطور المغرية فى ميعة الربيع ...

أحلها مسرور الخصى مقصورتها الأنيقة بين مقاصير سحر وضياء وخنث (١) وأفاض عليها من الوشى والزينة والحلى ما جعلها قطعة من الفن الجمالى الخيالى لا تبلغها قريحة شاعر ولا عبقرية مصور . وانغمرت بهيرة فى فيض الجمال والنور والترف واللذة ؛ ولكن هذا القصر الذى لا ثانى له فى دنيا الناس لم يستطع بما فيه من النعيم الدافق والسرور المتصل واللهو المختلف والأشجار المحمولة من كل أرض ، والأطيار المجلوبة من كل سماء ، والأواوين المنجدة بالديباج والإبريسم ، والبرك المرداة بالتماثيل والدُّمَى ، والسلطان الذى خضع له الدنيا ، والجلال الذى اعتز به الدين ؛ لم يستطع بكل أولئك أن يمسح عن وجه بهيرة هذه الكآبة الماشية ولا هذا السهوم الملحّ ، فقد كانت أشبه بالوردة المقطوفة على المائدة النارقة فى السرور الطافحة باللذة : تذوى وتموت وكل ما حواليها يزدهى وينتعش . فهل كان قصر الخليفة أضيق من قصر التاجر ؟ أم كانت سيادة ابن وهب أندى على قلب بهيرة من سيادة الرشيد ؟ واقع الأمر أن هذه الحال لم تطرأ على بهيرة فى عيشها الجديد ، وإنما كانت تلازمها وهى فى ملك ابن وهب ، وقد تذرع الرجل بالطب والحيلة واللهو إلى أن يرفه عن جاريته المحبوبة فما كانت تزداد على عنايته بها ورعايته لها إلا همًّا على هم ؛ حتى استراب فى حبها إياه فحاول أن يصل إلى سرها ويعرف متجه هواها فما استطاع . فلما ساومه النخاس عليها بالثمن الربيح نزل عنها غير آسٍ ولا آسف

كانت بهيرة قبل عامين قد وهبت قلبها الخالى المنتظر لفتى من سراة بغداد الظرفاء فشغله كله وتغلغل فيه تغلغُل السر ، وشاع به شيوع السرور . ثم تقلبت عليهما الأيام والأحداث وهما ثملان من رحيق الحب ، وادعان فى ظل الأمان ، حتى نزل بالفتى ماينزل بالمترفين المتيطلين من كساد الحال وهجوم الفاقة ، فباع كل ما يملك ، ثم عاش على الأمانى فترة من الدهر ؛ ورأى آخر الأمر أن من الإخلاص لحبيبته ألا يحمّلها وزر إسرافه وعواقب طيشه ، فباعها على الرغم من تشبثها به وإيثارها إياه من على ابن وهب

ودأب يزورها يوماً بعد يوم وهى فى قصر ابن وهب ، من وراء الحديقة ، ومن خلال السور ، وهى تنتظره فى العريش الذى رآها فيه الخليفة يوم تنكّر ، فيتساقيان كؤوس الهوى ، ويتناقلان حديث المنى ، ويتشاكيان حرقة الوجد ، وينظران نظرات الأسى المرير إلى دجلة والشبابُ الأحباب يشرقون على وجهه إشراق البسمة المذبة على ثغر السعيد ، فيذكران كيف كان هذا النهر الخالد مسرحاً لصباها اللاهى ، وشاهداً على حبهما الخالص ؛ وكيف نظر إليهما الدهر الخؤون فتقوض أربع الآهل ، وتفرق الشمل الجميع ، وآل الأمر بهما إلى أن يكون بين قلبيهما غاذل لا يُتَغلغل ، وبين جسميهما حاجز لا يُقتحم !

كانت بهيرة وهى فى قصر ابن وهب تستطيع أن ترى سليمان وأن تتحدث إليه وأن تترك للأقدار الرحيمة إسعاف حبيبها البائس بالثروة المرجوة فيستردها إلى ملكه ؛ ولكنها انتقلت الآن من عش الحمام إلى غيل الأسد ! فمن ذا الذى يستطيع الدنو من قصر الخلافة ؟ لقد ضرب الدهر بينها وبين

(١) من الحطايا الثلاث اللاتى استأثرت بهوى الرشيد حتى قال فيهن :

إن سحراً وضياء وخنث من سحر وضياء وخنث
أخنث سحر ولا ذنب لها ثلثى قلبى وثلثاها الثلث

حبيبها إلى الأبد ؛ فلا هو يستطيع الدخول إليها ولا هي تستطيع الخروج إليه ؛ فكأنه مات من دنياها وماتت من دنياه وبيت الخلافة لأمثالها قبر في الأول وقبر في الآخر !

— ٣ —

على أن الهوى كالسكر لا يعرف المحال ولا يحس الخوف ولا يبصر العاقبة فقد احتال سليمان حتى ظفر بثياب خادم من خدام جعفر بن يحيى . فكان يدخل قصر الرشيد في هذا الزي فلا يرتاب فيه الحراس ولا ينكره الخدم . وعرف مقصورة بهيرة فكان يتسلل إليها في الظلام أو في الغفلة ، فيقضي معها ساعة من النهار أو هزيعاً من الليل ينضحان فيه غرامهما المسعور بالحديث المسلسل والقبل الندية

وفي ذات ليلة طغى عليهما الحب وعصفت برأسيهما الصبابة فتولدت فيهما ناشئة من الأمل والعزم . قال سليمان وهو يثبت نظره المتوقد في نظر بهيرة الساجي :

— لقد أعددت عدة الخلاص ومهدت لك سبيل الهرب

— وماذا أعددت يا سليمان ؟

أعددت لك هذا الثوب الغلامي فالبسيه واخرجي تحت الليل حين تخشع الأصوات وتهجع العيون ولا يدخل ولا يخرج إلا رسل الأسرار بين قصور السادة والقادة . وسأكون في انتظارك لدى مشرع القصب من دجلة

فقالت بهيرة ودمعها الساجم يتقاطر على خديها تقاطر الطل :

— أتميت يا سليمان أني ملك الخليفة فلا أخرج منه إلا بالبيع أو بالعتق !

— لم أنس يا بهيرة ، ولكن الخلاص بغير ذلك محال

— وكيف يصفو لنا العيش يا سليمان وهو شقاء متصل بمعصية الله وخيانة الخليفة ؟

— ربك يا بهيرة أخفق هذا الصوت في نفسك ، وفكري قليلاً في بؤسي وبؤسك . ليس لي غيرك وليس لك غيري ؛ أما الخليفة فله ألف جارية ، وله أضعافهن إذا شاء . والله يا بهيرة يغفر الذنوب جميعاً

— ألا تظن يا سليمان أن العذاب في الحب عذب ، وأن الموت في سبيله شهادة ، وأن هذه الساعة التي نلتقي فيها على غفلة من الرقيب بين الخوف والأمن ، وبين اليأس والرجاء ، أدنى إلى الحب الصحيح والسعادة الحق من العيش الغرير الناعم على مهاد الرذيلة ؟

— إن العشاق يا بهيرة لا يعيشون بعقول الخلقين ولا يخضعون لقوانين المجتمع

وأسلس سليمان الدمع والكلام فأوشك أن يحمل بهيرة على رأيه لولا أن قرع باب المقصورة قارع عنيف ، فاستطير قلب العاشقين من الرعب ، وأيقنا بالهلاك المحتم

وفتح الباب ودخل مسرور قهرمان القصر وسيد الموالي وحاجب الرشيد ، ومعه نفر من الحراس ، فأمر بالقبض على سليمان ، وكان قد سمع بآذان جواسيسه ما دار من الحديث بينه وبين بهيرة

— ٤ —

سيق العاشقان إلى مجلس الخليفة الخاص متهمين بانتهاك حرم الخلافة ، والمؤامرة على الفرار ، والخلوة الأثيمة . فسألهما عن جلية الخبر فأجاباه بصحته . واستفهم الشهود عن تفصيل الحديث فأدلوا به على نصه . وكان الخليفة مفتوناً ببهيرة لما جرب عليها من الوفاء والذكاء والصدق فعفا عنها ، ودفع بسليمان إلى مسرور ينفذ فيه حكمه

فتقبل العاشق المنكود الحكم عليه قبول من راض نفسه على التسليم بالقضاء المحتوم والأمر الواقع . وذهب به الموالي إلى لقاء الموت ، ولبثت بهيرة في حصرة الخليفة شاخصة لا تطرف ، واجمة لا تنطق ، كأنما أخرجها الجمود عن الحياة ، وفصلها الذهول عن الوعي . ثم رأيت بعينيها في سكون ، وحركت لسانها ببطء ، وألقت بنفسها على قدمي الخليفة وهي تقول :

مولاي : إني أعلم أن الجريمة إذا مست الشرف شاق بها العفو وقصرت عنها الشفاعة ؛ ولكني أعلم كذلك أن حلمك لا يستخفه غضب ، وعفوك لا يتعاظمه ذنب . فهب لي دم سليمان فقد جنى عليه حبي ، وسعى إلى عدمه وجودي . وهو يا مولاي صادق النية سري الخلق بريء الساحة

فقال لها الخليفة : إن هذه الجريمة تنسى بوجهها الوقاح صورة الرحمة . فماذا يبقى ما شئت إلا العفو ، فإني لا أمنح إلا ما أملك